قصة من الارض المحتلة

الخطّ الوهميّ

بقلم محمد علي طه

عندما سافرت في ذلك اليوم الى المدينة المقدسة كان أمل طفيف يدغدغ قلبي . وكان تفكيري كله منحصرا في هذا البصيص من الامل ..

لم أجرب في حياتي ولو مرة واحدة السفر الى المدينة المقدسة ، فهناك اشياء تؤلمني ، وتزيد في فؤادي الحسرات .. وهناك أشياء أخرى تمنعني من السفر .

وكان المرحوم والدي يقول لي : لا تفرق قلبك بالحزن ، فلك قلب واحد واحزان الدنيا كثيرة ، لكنه لم يعمل بحكمته ففرق قلبه ومات ! .

ولكن لماذا خرجت عن الحكمة وسافرت ، وانا أعلم ان في المدينة المقدسة مأتما كبيرا .. ؟

ومع ذلك لم تكن السفرة مملة الى الدرجة التي كنت اتخيلها .. فالقطار نهب عشرات الكيلو مترات بسرعة وأنا غارق بتفكيري .

كان همي الوحيد ان أتذكر ملامحه . فالسنوات الثماني عشرة محت من ذاكرتي بقايا صورته .

وخجلت ان أسأل بعض الكبار من ابناء قريتنا عن تلك الملامح .. فسؤالي لا جواب له الا السخرية والاحتقار . ونعتي بالغباوة .

ولم يكن لي أي مخرج عندما ازمعت على السفر وحملت هديتي البسيطة والمؤلفة من سلة برتقال يافاوي وثلاثة كيلو غرامات من السمك الجيد .. لم يكن لي أي مخرج الا ان أحمل صورته الوحيدة عندنا ، علها تسعفني ، وتساعدني بالتعرف عليه بعد هذا الغياب الطويل المر .

وقرأت الصورة عشرات المرات .. وكالطالب الغبي بقيت . !

ولكن لماذا أنا غارق في أنانيتي وكبريائي ؟

فالناس طيبون .. وكلنا في الهوا سوا ، وربما يحمل لي القدر مساعدة انسان ما يعرفنا الاثنين .. فيقوم بمهمة انسانية ونبيلة . وهو ، بلا شك يعاني ما أقاسيه ولن يتعرف عليّ بسهولة .

أنا الطفل الصغير الذي كان يبكي على كسرة الخبز في تلك الايام أصبحت اليوم شابا أركض وراء الرغيف لاسلّه من بين أنياب المقاولين واعود به لامي واخوتي .

ولو كانت أمي سليمة ولا تعاني من آلام مرضها الخبيث لسافرنا معا .. وهانت القضية ، وحلت العقدة من مربطها .

وتوكلت على الله .

ترى . ماذا سيقول لي ؟ عن اي شيء سأحدثه ! ليت المقابلة تتم بدون اسئلة . بدون حوار . بدون ...

— ... ... !! ؟

— كيف أبي ؟

— آ .. أبوك .. آ .. أبي .. نحمد الله و .. و .. يهديك السلام !

— وأمي ؟

— بخير ، صحتها جيدة ، تهديك قبلاتها الحارة !.

— والاخوات ؟

الجميع بخير .

— والكرم .. ؟

— ما زالت غلته جيدة .. لكن ..

— ماذا ؟!

— كيف أنت ؟

وهممت ان أحمل هديتي واعود عندما وصلت الى هذه النقطة من تفكيري ، لكن جمهور الحجاج الذي كان يتسابق في شوارع المدينة شجعني على المضي في سيري .. حتى وصلت قرب البوابة مع الآخرين .

وفجأة صحوت واكتشفت غباوتي .

ورحت أبحث عن انسان أعرفه كي يخبر شقيقي انني وراء الخط اللعين .. كي يتولى الامر بدوره ليسهل المقابلة .

ما لهم وما لنا ؟ ما شأنهم بنا ؟

لو التقينا .. وجلسنا .. وأشعلنا سيجارتين .. وتحدثنا عن الوالدين والكرم ..

وراء الخط كان أناس كثيرون يستقبلون كل زائر بألف سؤال وسؤال . شيوخ وشباب .. نساء ورجال وأطفال .. كانوا يلوحون بأيديهم لنا !

العسكري ينهرني للمرة الثالثة .. ويحذرني بألا اقترب من الخط الذي رسمه السادات الكبار للصغار .

رفعت يدي وحركتها .

شعرت ان كل هؤلاء الناس أقاربي .. كلهم أخوتي !

— لا تكن غبيا ! أطلب من الموظف الكبير ان يساعدك والا لن تراه ! هكذا قال لي حنا — أحد معارفي .

— لن ارجوه . فأنا أعرف الجواب !

غافلت العسكري . وحملت هديتي وتقدمت من الخط . سمعت أصواتا .

معظمهم حيّاني برفع الايدي .

وضعت حملي على الارض ورفعت كلتا يدي .

من بين الحشد .. ركض نحوي وبصوت فرح خارج من أغوار بعيدة قال : سليم .

ولم أشعر الا وانا اقول : محمود . وتعانقنا .

يد قاسية جرتني الى الوراء .

وعندما ابعدت رأسي عن صدر أخي شاهدت يدا مماثلة تجره . استدرت .

صفعت العسكري على وجهه .

وصوت صفعة مماثلة جاء من هناك . وبعدها ..

صار كل الناس يتحدثون عن خط وهمي كان يقسم المدينة المقدسة الى شطرين .

محمد علي طه

عن جريدة « الاتحاد »